مغامرات فنانة

أقصوصة مصرية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كان المنزل حزيناً واجماً ... وكانت الأم الرؤوم قد نخلت مسحوقاً أسمر اللون جافياً وأخذت تعجنه، وبحثت ابنتها (سيدة) عن علبة التقاب طويلاً، ثم لم تجد بها غير عود واحد ... عود واحد من الكبريت في هذه الليلة الهائلة من ليالي أمشير القمطرير ... وسمدت وداد فوق السطح تجمع أعواد الحطب المبللة، وعليها أسمال لا تقي من البرد الذي كان يشك السكينة كما تشك الإبر ... وكان الطفل الصغير طاهر يبكي ويئن ويتلوى من الجوع والبرد، وكان يناقل أمه فيلتهم قطعاً صغيرة من عجينة السن يعالج بها بطنه الخاوي، فلما شهدته أمه يصنع ذلك جرت من عينها دمعة غليظة كانت تجاهدها مجاهدة عنيفة، وكانت تحرص على ألا تنذرف حتى لا تفجر أحزان العائلة البائسة ... لكن الدمعة غلبت الأم الضعيفة الواهية فجرت على خدها الشاحب المتقع ... ولمحتها سيدة فتفجرت بالبكاء الذي كانت تحبسه، فلما رأت وداد ورأت هذا المنظر قالت ضاحكة:

— أنت تبكين يا أماه!

— كلا يا ابنتي. إنها دموع تنلبني من البرد. يالها من ليلة!

— وأختي سيدة؟ أتبكين يا سيدة؟

ولكن سيدة لم تكن تبكي فحسب ... إنها كانت تذرف روحها من عينيها الجميلتين المحزونتين.

لقد حاولت الفتاة أن تخفي ما بها لكنها لم تستطع ... لقد انهمرت دموعها بشدة فقالت لها وداد:

— كلا يا سيدة! كلا يا أختاه! إننا لسنا بهذه الدرجة من الشقاء التي تنكأ في فؤادك مثل هذا الألم ... يجب أن نصبر ... إن الله القدير ينظر إلينا وهو بنا لطيف خبير ... افرضي أننا جلسنا حول هذا المجين نبكي طول الليل، فماذا يكون حالنا؟ هل تخبزه دموعنا؟

فنظرت إليها سيدة، وهي تكفكف دمعها، وراحت تقول:

— أنا والله لا أبكي لحالي يا أختاه... إنما يبكيني ما يقاسيه أخي من الجوع ...

فضحكت وداد ثم قالت:

— أي جوع وقد تغدى منذ ثماني ساعات فقط!

فقالت سيدة:

— ثماني ساعات! وكيف؟ إن لنا يومين لم نذق خلالهما طعاماً!

فقالت وداد:

— يومان، كيف؟ وحبات الأرز والعدس التي سفها طاهر بعد الظهر؟

وتبسمت الأم المحزونة، ثم أومأت إلى سيدة أن تشعل النار في الفرن.

لشد ما كانت الريح تعصف هذه الليلة ! ولشد ما كان البرد والصقيع يلفحان هذه الدار الواهية ! يا للفقراء !

توفى الشيخ محمد (الفقي) عن هذه الأسرة الشقية ، ولم يترك لها ما يقيم أودها إلا بر أصدقائه وعطف عارفيه إن كان بر الأصدقاء وعطف العارفين يقيمان فى هذا الزمان أودا أو يسدان رمقاً أو يستران عورة ، أو يمسحان تلك الدموع التى فجرها ألم البرد وأنين الجوع وزمهرير أمشير فى تلك العيون الشقية البائسة !

لقد كان المغفور له يشترى بآيات الله ما يتصدق به المرزوقون عند المقابر ، وما يشترون به رحمة الله يستنزلونها فوق الأجداث بالعيش والكعك والملاليم وأوصال القصب . . . وكان المغفور له محبوباً من الناس لأنه كان يخدم جميع الناس ، ويقضى لهم حوائجهم ، ويحمل أطفالهم ، ويحميهم مكر الطريق وأذى الكلاب … وكان قنوعاً لا يساوم فى أجر ولا يلحف فى طلب ولا يثقل فى سؤال … وأحسب هذا هو الذى حبب الناس فيه … فهم كانوا يستغلون قناعته البائسة فى نفسه أجره ، وهذا من ألأم طباع الناس …

وكان الشيخ محمد يحرص على إعزاز عائلته حرصاً شديداً برغم هذا العوز الذى كان ملاقيه . . . فلم يكن يسمح لزوجته أو ابنتيه بالذهاب إلى منزل أحد من أعيان المدينة فى حاجة مما يدفعهن الفقر إلى سؤالها … ورفض ألف مرة ما عرضته عليه زوجته من الخدمة فى منازل الأغنياء « لأنه ابن أصل وحامل لكتاب الله » ، كأنهم قالوا إن زوجة ابن الأصل وحامل كتاب الله لا يجوز لها أن تخدم الناس ولا أن تساعد نساء الأغنياء فى الغسل والخبز ولوازم المنازل . فتساعد بهذا زوجها الشقى بما يؤجرها به عملها ، وتخفف من ضغط ما يصنع الفقر بأبدان أبنائها وما يشيع فيها من مرض وجوع ووصب …

على كل حال . . . هذا قانون تصنعه العزة ويشرعه التعفف ومصدره الفضيلة والحياة فى نفوس الفقراء … وهذه هى الغرائز التى فصلت بيننا وبين الحيوانات فجعلت لنا تيارات من التفكير ندفع ثمنها برغمنا أحزاناً ودموعاً وشكويات

وكانت سيدة ابنة الشيخ محمد فتاة ممتلئة الجسم بضة المظاهر ، لها ابتسامة يحسبها الرائى مفتاح القلب . . . وكانت تلفت الأنظار إذا خطرت فى الطريق بقدميها الحافيتين الجميلتين البيضاوين ، وبجسمها المشوق الملتف فى الملاءة السوداء الساحرة .

وكان للشيخ محمد صديق حدث السن ابن تاجر غنى يسمى خالداً ، وكان هذا الصديق مولعاً بسيدة ولعاً شديداً ، وقد دخل غرامه بها إلى فؤاده عن طريق قدميها . فكان غراماً قذراً لأنه نشأ من التراب وتمرغ فى الطين ، ولم يكن كهذا الغرام الذى تبثه العيون النجل فتطهره بالنار وتصهره بالسحر وترفعه إلى السماء .

وقد ظن خالد أن موت الشيخ محمد سوف يسهل عليه قضاء لباناته من الفتاة التى خلبته وسلبت فؤاده وأقامته وأقعدته فى هوى مبرح وغرام متقد وفكر سابح فى جسمها البض ، وقدها الغض ، وجمالها الفينان

وكانت سيدة تعرف ما ينطوى عليه خالد من حبها لكنها كانت تعرف أيضاً أنه ربدها للشيطان

وليس يريدها لله الرحيم الرحمن ، فكانت تشيع عنه دون أن تقطع حبل أمله ، وكانت تصلى لله أن يهديه إلى سواء الحب ، فيثور على تقاليد البيئة ، ويتفتح لها بقلبه ، كما تفتح لها بجسده ، فيتقدم إليها خاطباً لا أن يقعد لها بكل طريق خاطباً . . . على أنها مع ذلك لم تحبه قط ، بل إنها لم تمل إليه ولو أقل الميل وأهونه . . .

أما وداد فكانت فتاة مرحة لا ترى أن يكون الفقر سبباً لهم أو طريقاً إلى ألم . . . لقد كانت تشدو شيئاً من التعليم حصلته فى كُتّاب القرية ، وكانت لذلك تشدو كثيراً من آيات الله وقليلاً من القصص الدينى . . . وهذا الكثير من آيات الله والقليل من القصص الدينى إذا صادفا ذهناً مستنيراً كانا غناء لفتاة فى مثل ظرف وداد وفى مثل طلاقتها وإيناسها وحدة ذكائها

وكانت مع ذلك جميلة ولو لم تبلغ من ذلك جمال أختها ، لكن جمالها القليل كان أخطر من جمال أختها الكثير . . . لقد كان جمالها خطراً عظيما على كل قلب غرير ونفس خالية . . . لقد كان لها عينان تحسنان التغمز وتجيدان التكلم وتعرفان طريقهما إلى سويداوات القلوب . . . فإذا أرادت أن تثير فيها الرحمة عرفت كيف تفجر فيها الألم ، فينهمر من العيون دموعاً . . . وإذا أرادت أن تغرقها فى لجج الغرام فلا نجاة لها ولا خلاص سلطت عليها سهاماً مراشة ندى شغافها بل تمزقه ، بل تشب فيها ضراماً لا ينفع فيه طب ولا حيلة معه لدواء

هاتان عينا وداد !

أما صوتها فكان سلاحاً لا يقل خطراً عن مهلكات الغرام جميعاً . . . لقد كانت ترسل نبراتها فى الهواء فتحسبها موسيقى تنزل من السماء ، كالحيا يهتز له الروض وتتراقص تحته الأزاهير

كانت وداد بارعة فى مضغ كلامها ومطه وإرساله سهلاً هيناً ليناً ، وإمالته وترصيعه بظرف لسانها أو بمس شفتيها . . وكانت ترنه إذا شاءت فيتجلجل ، أو تخطفه فينقطع كالنغمة الصامتة التى تقف حين تقف أنملة الموسيقى على أحد أوتار العود

ما كان أجدر وداد بجنة من زهر وطير وأنهار من لبن وخمر وعسل مصفى تعيش فيها مع الملائكة الأطهار الأبرار ! !

ما كان أجدرها بجنة من سحر وشعر وموسيقى وغناء وحب !

ما أكثر وداد على هذا الفقر الآثم المبين ! !

ولكنها ليست كثيرة على هذه الأم المفئودة ، والأخت المنكودة ، والأخ الطفل الضعيف اليتيم . . . ليست كثيرة على هذه الأسرة البائسة التى غال الموت عائلها فقضى عليها بالصبر والجور والحرمان . . . إنها ضحكة مكبوتة فى صدر مكروب حزين . . . إنها بارقة الأمل فى حلك اليأس وليل الشقاء البهيم ! . . .

فلتستتر أحزان أمها سعادة إذن ، ولتلعب فى مأساة أختها الناشئة بينها وبين خالد دور البطل . . ولننظر كيف تعبث بعبث الزمان ، وكيف تبدد هذه الآلام والأحزان . . . وكيف تحل محل والدها الفقيد فتبتز الكمك وتحتال للرغفان ، وتربى الطفل المسكين بغلائل الحزانى وصدقات الثكالى وقروش الحانين !

* * *

كان الحطب مبللاً ، وقد حرصت سعيدة لذلك ألا يذهب عود الكبريت سدى فلا يكون خبز ولا يكون أكل ولا يكون دفء ، ويكون عكس ذلك جميعاً

وذهبت تبحث عن ورقة تشعلها تحت الحطب ، ولكن عبثاً حاولت أن تجدها ... فلم يكن في البيت من كتاب غير كتاب الله القدير ، وغير الكتب الدينية القليلة التي كانت تقرؤها وداد في الكُتّاب..

وقد حاولت أمها أن تحملها تأتي بورقة منها لا لزوم لها فتشعلها لتشتعل النار وليخبزوا ويأكلوا ويستدفئوا .. لكن وداد دافعت عن كتبها التافهة في دعابة وحزم ، وأبت أن تنزع منها ولو غلافة داخلية لا تؤثر في بهجة كتاب الديانة ، إن كان لكتاب الديانة القديم الرث بهجة — ولا تنقص من كتاب التهذيب شيئاً ، إن كان الكتاب كله وزن في هذه الليلة الليلاء التي اشتد قرها وفدح ضرها.

واشتد الأخذ والرد بين الأم وسيدة من طرف وبين وداد من طرف آخر ... وعبست الأم ، لأنها كانت تضيق بمزاح وداد ذرعاً ... ثم فاضت كأسها فزمجرت وراحت تسب وتشتم وتلعن الكتب والكُتّاب وبنات المدارس ... والحمد لله فلم تكن وداد منهن، وإن تكن من بنات الكُتّاب

وخشيت وداد أن تتناول الأم كتاب الديانة كله فتشعله بالثقاب لكي تأخذ في عملها ... وفي الحق لقد أوشكت الأم أن تصنع ذلك ... لولا أن تضاحكت وداد ثم طمأنت أمها وأكدت أنها ستأتي لها بورقتين جيدتين ينبغي أن تحرقا حالاً ، وينبغي أن تتخلص منهما الدنيا بأسرها لا هذا البيت الحزين وحده ...

وذهبت إلى غرفة النوم والاستقبال وتربية الكتاكيت والحزن ، وفتحت صندوق الملابس والأطباق والقباقيب ، ثم عادت تحمل الورقتين الكبيرتين وهي تضحك ضحكات ساخرة ، ثم أشعلت عود الثقاب ، ودب اللهب في الورقة الأولى تحت القش ، فتصاعد الدخان الكثيف يملأ أرجاء المنزل ، وقبل أن تنطفئ أشعلت الورقة الثانية وقد علا ضحكها وأغربت فيه حتى نهرتها أمها وصبت عليها جاماً كاملاً من الشتم واللعن والسباب ... ولكن ذلك لم يمنع الورقة من أن تحترق وتطوي سرها معها إلى الأبد كما طوت سرها الورقة الأولى آخر الدهر

وسألتها سيدة ماذا كان يضحكها ، وكيف سرها أن تضحك على ما هم فيه من هذا الكرب .

فقالت لها وداد : « خمني ! »

فقالت سيدة : « وكيف أخمن ؟ »

فقالت وداد وهي (تبطط) الرغيف و (تخدعه) : « يجب أن تخمني ! »

فاستشاطت سيدة ، وحدجتها بنظرة محنقة ثم سكتت

وأكلوا لا هنيئاً ولا مريئاً ... وكان طاهر يتربص بالرغيف الأول الذي خرج من الفرن فالتهمه بقليل من الملح ؛ ثم نام فوق الفرن وتغطى ، وأخذ يرسل في أرجاء المنزل غطيطاً مزعجاً

وانطلق المؤذن يرسل في سماء المدينة أذان الفجر ... فنهضت العائلة المقدسة تتوضأ وتصلي ، وتتهيأ لزيارة المقابر ، وكان اليوم يوم الجمعة المبارك الذي تتردد فيه الأرواح على رموس الموتى كما يزعم الحزانى من أهل سكان القبور

وبدت لوداد فكرة خاطفة فلم تتردد في تنفيذها قالت لأمها :

— اليوم الجمعة يا أماه ، فبم نتصدق على روح المرحوم ؟

فقالت لها الأم الموهونة :

— نتصدق ؟ ولم نتصدق يا ابنتي ، وبم ؟

— لم تتصدق ؟ ألا تعرفين لماذا يتصدق الناس؟

— أعرف لماذا يتصدقون ... ولكن الناس كلهم لا يتصدقون !

— أجل ، ولكن يتصدق خيارهم !

— وهل الذين لا يتصدقون هم شرار الناس؟

— وماذا يكونون إذن ؟

— يكونون إما قادرين على الصدقة ولكنهم لا يفعلونها ، وإما معوزين فهم بالصدقة أحق ... أليس كذلك ؟ !

— ومن أيهم نحن يا أماه ؟

— نحن من الناس الذين لم يكن عندهم أمس غير عود واحد من الكبريت ، وغير قدحين من النخالة ...

— ولكنا أكلنا ودفئنا والحمد لله !

— الحمد لله ... هذا ما لا شك فيه ! وهل يحمد على المكروه غير الله ؟

— ونستطيع أن نتصدق أيضاً !

— ولم لا نستطيع إذا كنا أغنياء مثلك ؟

— مثلي أنا ؟ ...

— والله يا ابنتي أنا لا أدري بأي أجزاء جسمك تفكرين ؟ !

— أفكر برأسي طبعاً !

— إذن نترك لرأسك الدر المفكر الحصول على ما نتصدق به

— إذن دعوني أنطلق إلى الفراشة وحدي ، ولا تلحقوا بي إلا بعد الشروق ...

— وماذا تصنعين ثمة ؟

— لا أستطيع أن أذكر لك هذا الآن ... ولكن أرجو أن تطمئني إلى ما أنا صانعة

— إذهبي وأنا غير راضية ... واذكري أننا فقراء إلا من الكرامة يا ابنتي

— إطمئني يا أماه

وهنا قالت سيدة :

— وماذا لو أتيت معك يا وداد ؟

فقالت .

— لا ... لا أريد أن يأتي معي أحد ... بل إن لكم موعداً فلا تخلفوه ...

وانطلقت وداد في ملاءتها السوداء الشاحبة ، وراحت تطوي الطريق الموحلة تحت قطرات الطل

* * *

المدينة ما تزال نائمة ، ولم يستيقظ من أهلها إلا عباد الله الصالحون ... وهؤلاء عادة هم الطاعنون في السن الذين ينظرون إلى شبابهم الولي فيطعمون في شباب مثله يكون لهم في جنة عرضها السموات والأرض ؛ فيعملون له بالصوم والصلاة وإدمان التفكر والضراعة إلى الله .. وهذا شيء محمود منهم ، وكان يحمد لهم أكثر لو أنهم فعلوه في فتوة العمر وشرخ الشباب وعنفوان الصبا ... حين يحمد المرء مجاهدته للنفس الثائرة والقلب الجموح والغريزة الشابة . أما هذه التقوى التي تأتي عن عجز الجسم وموات القلب وعزوف الرغبات فهي تقوى الطمع والبكاء على ما فات ... على أنها تقوى محمودة ، وهي برغم ما قامت عليه من نقص خير من شيبة تفنى على التي وتمرح في الضلالة ولا تأبى أن تعصى الله ...

كانت تتهادى وداد في غبشة الفجر بقدمين رشيقتين كقدمي دمية ، وكان الشيخ سيد أحمد قد خرج من المسجد بعد صلاة الصبح يسبح ويحمد الله ويسأله أن يمد في عمره حتى يعمل عملاً صالحاً يرضاه

وقبل أن ينحني ليربط حذاءه حانت منه التفاتة إلى هذه الأنثى السارية وحدها في هدأة الصبح ، وقد شدّت ملاءتها حول ردفيها شداً وتبقاً غل يهتز ويرتج ويغازل الأبالسة والشياطين ، ويُطلق الأفاعي والشهوات ، ويسلط الفتنة على أمثال الشيخ من الصالحين الأوابين

ونسي الشيخ صلاته وتسبيحه ، وهرول وراء الفتاة دون أن يمني بربط الحذاء ، فالتصقت الأربطة بالوحل ، وفي سبيل الشيطان ما يلقى الفؤاد الهيمان

وجعل السيد أحمد يتحنح ويرسل في الهواء بعض ما كان يتقنه من لغة المغازلات أيام الدنيا شباب والعمر فينان والقلب مشبوب ... وكانت وداد تعرف ما أصاب فؤاد الشيخ وما انطوت عليه أضالعه ، فكانت تتخلع في مشيتها أكثر فأكثر لترى ماذا يصنع الدنف المتصابي ... وهكذا كانت وداد خبيثة مرحة في طريقها إلى الموتى ! !

وهرول الشيخ سيد احمد ، وأسرعت وداد ... ثم برز من الظلام فتى عريض الكتفين مشدود العضل طوال يبث في القلوب رهبة ، ويثير في النفوس حالاً من الوهم لا تدرى مصدره ... فانطلق في إثر الشيخ حتى إذا حاذاه قبض على قفاه بيد جبارة عاتية وقال له :

— إلى أين أيها الوالد ؟

— ومن أنت ؟

— ألا تعرفني ؟

— كيف أعرفك وقد أرخيت هذه العباءة على رأسك كاللصوص والقتلة هكذا ؟

— أي لصوص وأي قتلة يا شيخ سيد احمد ؟

— عجباً ! أتعرفني ولا أعرفك ؟

— إذن فاطمئن لمعرفتي إياك على الأقل

— من أنت بالله عليك ؟

— ليس من شأنك أن أذكر ذلك لك ...

— ومن شأنك أن تكسر رقبتي يا ولدي ؟

— وما قيمة رقبة تخرج من المسجد لتنطلق وراء امرأة كالكلب المسعور هكذا ؟

— أنا يا ولدي ؟ أستغفر الله ... أستغفر الله !

— أحقاً تستغفر الله يا شيخ سيد احمد ؟

— أستغفره وأتوب إليه . . . لقد تركنا هذه الصبوات لكم يا شباب العصر

— إذن أين كنت معتزماً أن تذهب ؟

— أزور مقابر المسلمين

— وماذا لك في مقابرهم أيها الأب !

— عظة وعبرة لمن لا يتعظ ولا يعتبر يا . . . ما اسمك إذن !

— أنا ... أنا عزرائيل !

— أعوذ بالله منك يا سيد عزرائيل ... أترك رقبتي جعلت فداك !

— لن أتركها حتى تصدقني ... ألم تكن تتبع هذه المرأة الرّداح ؟

— والله إنك لا ذوق عندك !

— وكيف ؟

— لا أنت تركتني في سبيلي ولا أنت الذي تسرع حتى ...

— حتى ماذا يا سيد أحمد ؟

— حتى لا تفوتنا يا خبيث !

— إذن هلم ...

وانطلق الشيخ والفتى في إثر وداد ، وكانت قد ابتعدت كثيراً عنهما ، بيد أنهما لحقا بها بعد جهد ، وكان الطريق قد انعرج ناحية المقابر ، وكانت

رهبة الأبدية تنشر ظلالها ثمة ، وأشباح الموتى ترف فى فجر أمشير ، لكنها لم تكن تثير الرعب فى قلب وداد اللعوب ، ولا تردع الرجل والشاب عن متابعة الفتاة .

قال الشيخ وقال الفتى له :

— هل صليت الصبح يا ... سيد عزرائيل ؟

— صليته ما فى ذلك شك ...

— وماذا أفادتك صلاتك ، وقد جعلها الله لتنهى عن الفحشاء والمنكر ؟

— إنها إن لم تنهنى هذه المرة فإنها سوف تنهانى يوماً ما ... لكنك أنت ... هل صليت ؟

— إنى أغالب نفسى على الصلاة فلا أستطيعها وأسأل الله أن يهدينى قريباً

— ومتى تنتظر أن يهديك الله ياسيد عزرائيل ؟

— أحسب أننى لن أهتدى قبل أن أتزوج

— وماذا يمنعك من الزواج ؟

— لا يمنعنى شىء ... فقط ...

— فقط ماذا ؟

— أخشى ألا أهتدى بالزواج كما لم تهتد أنت به !

— سنعود إلى ذلك من جديد .. أسرع .. أسرع يا مغفل ... لقد فاتتنا الفتاة ...

* * *

وكانت وداد قد فاتتهما بالفعل ، وكانت قد غابت عن أنظارهما كأنما ابتلعتها المقابر

ماذا هنا فى هذا العالم الثانى ؟ !

لماذا يبكى الناس كثيراً هنا ؟

هل هو الفراق الذى يفجر دموعهم ويملأ أفئدتهم أحزاناً ؟ !

هل نحن فى هذه الدنيا الخائنة أحسن حالاً من سكان هذا العالم الثانى ؟ لا أحسب أن الفراق هو الذى يبكى الناس ، إنه الفزع من ظلام القبر ودياره ، الفزع من أن يأتى اليوم الذى نغيب فيه فى ظلمات التراب وتأكلنا ديدانه ... نحن نخاف على أنفسنا ؛ ولذلك فنحن نبكى علينا لا على ذوينا ، وإن يكن منا قليلون يبكون على أحبائهم !

أية فلسفة فارغة هى هذه الفلسفة ؟ أين وداد ؟ .

آه ! ها هى ذى جالسة على الثرى تتلو آيات من الكتاب ! حقيقة إن فى الدنيا جمالاً هو الذى يحبب الناس فيها حتى ليؤثروها على كل شىء ، حتى على الحياة الباقية ... !

ما أجمل ما يرتل القرآن قبل الشروق بصوت ساحر هادئ رقيق مثل صوت وداد ؟ ! هذا هو القرآن المشهود ... قرآن الفجر !

لقد اجتمع الناس من كل صوب ليستمعوا إلى هذا الترتيل كأنه ينطلق فى آذانهم من مزمار داود

... ثم سكتت وداد ، فدست الأم المحزونة الجالسة فوق ثرى ابنها قطعة فضية من ذات القرشين فى يدها ، وأقبل الناس يدسون فى اليد نفسها قروشاً كثيرة تهللت لها أسارير المقرئة الجريئة . ولما انتقلت فى صف آخر من المقابر القريبة وجدت أخانا الشيخ سيد أحمد عند قبر منفرد يتحدث إلى صاحبه الذى يسمى نفسه عزرائيل ، فلما شاهداها صمتا ... ثم رأى الشيخ أن يمزح كأن فرصة المزاح كانت مؤاتية ، فقال لها وقالت له :

— ألك فى سورة تقرئينها على موتانا يا ست الشيخة ؟

— ولم لا ... أنا مستعدة يا شيخ سيد !

— يا خبر ! أنت تعرفيننى ؟

— وكيف لا أعرفك وقد كنت صديق والدى!

— والدك !

— أجل والدى ! هل نسيت ؟

— ومن والدك يا ست الشيخة ؟

— يا للوفاء ويا للأوفياء !

— لست أذكر ! من أنت ؟

— ألا تعرفنى ؟

— لى الشرف !

— ما دام لك الشرف فاسمعنى أقرأ لك أولاً

— تفضلى !

— آمل أن يروقكما ترتيلى ... أليس كذلك يا سيد خالد ؟

— خالد ؟ ومن خالد ؟

— صديقك هذا . . . أليس هو خالد أفندى عبد النبى ؟ !

وجذب الشيخ سيد أحمد الغطاء عن رأس صاحبه فإذا هو خالد عبد النبى حقيقة ... وقد عجب عجباً شديداً كيف لم يعرفه وقد ماشاه كل هذا الوقت من مسجد ولى الله إلى هذا العالم الثانى !

ولكن كيف عرفت وداد خالداً ؟ ! المسألة بسيطة جداً ... إن هذا الجسم الممتلئ الذى اكتنز عضله ليس لأحد فى البلدة إلا لخالد . . . وقد كان خالد المدنف بسيدة بنت الشيخ محمد يحوم حول حمى حبه فى مثل هذا الوقت من كل فجر . . . وكانت وداد تعرف هذا الأمر ، وكانت غيرة خفيفة تدب فى قلبها من أجل أن القنص ليس قنصها ، فلما خرجت هذا الفجر قاصدة إلى القرافة كان خالد يقطع الطريق أمام المنزل الفقير جيئة وذهوباً . . : وقد عرفته رغم العباءة الكبيرة التى كان يخفى فى ثناياها رأسه ... أما هو فقد تبعها بعد أن عرفها ليرى إن كانت الفرصة تسنح ليخاطبها عن سيدة ؟ لكنها كانت خبيثة ، وكانت تعرف أنها ذاهبة إلى المقابر لترى إن كانت تستطيع أن تصل عمل المغفور له والدها العزيز الراحل . . . لذلك لم تتلكأ ليكلمها خالد ، حتى كانت أمام المسجد ، وكان ما كان من لقاء الشيخ سيد أحمد للسيد عزرائيل ...

وتربعت وداد على الثرى المبلل وأخذت فى ترتيل آيات الذكر الحكيم ... فلما رتلت : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ...) جعلت ترددها فى خشوع وخشية ، وكان الأفق الشرقى قد بدأ يصطبغ بأمواه الورد والبنفسج ، وكانت حواشى السحاب الرائع تنشر فى الشرقين أذيالها فتضاعف جلال الترتيل ، وتمتزج بالصوت البكر والقراءة العذرية ، ثم تترقرق جمالاً وتقوى فى قلب خالد وفؤاد سيد أحمد ، الذى عرف من صاحبه أن الفتاة هى ابنة صديقه الشيخ محمد رحمه الله

وختمت وداد آياتها ، ثم همت بالانصراف ، فمد خالد يده بقطعة فضية كبيرة ، وكذلك صنع الشيخ سيد أحمد ، ودست وداد القطعتين فى جيبها ثم ذهبت من طريق ، وذهب الرجلان من طريق آخر ، كما ذهبت الشياطين كلها من طرق شتى وفى وجوهها حسرة ، وفى أفئدتها تلدد ، لما أصابها من الفشل فى أداء مهمة الشر التى أبقتت من الجنة بسببها ؛ والتى من أجلها قاسمت الله العلى أن تقعد للناس صراطه المستقيم .

* * *

— لماذا لم تحضروا لميعادكم ؟

— كان أخوك نائماً فخشينا أن نتركه وحده ...

عسى أن يكون الله قد فتح عليك يا وداد ! !

— الحمد لله حمداً حتى يرضى !

— وما هذا الذي في (طرفك) إذن !

— خير كثير ومال !

— مال !

— ولم لا يكون مالاً ؟

— ومن أين لك المال يا ابنتي !

— كما كان أبي يصنع صنعت !

وجلست وداد تعد الرغفان والكعك، وأقبلت سيدة وأقبل معها أخوها على أوسال القصب يعصانها بشغف ، وهما بين الفينة والفينة يقضمان كعكة أو يأكلان قطعة من العجوة المقشورة الملبسة بالسمسم وكلما أبدت الأم انتقاداً لما صنعت وداد راحا يجادلانها ألا سبيل إلى (الستر) إلا هذا السبيل ! !

أما النقود فقد أربت على الخمسة وعشرين قرشاً فكانت وحدها أكبر برهان على عبقرية وداد وصحة براهين سيدة ، وعقم صرارة الأم وفساد انتقاداتها

* * *

اشتهر أمر وداد القرية وحيية ليالي المولد النبوي في كل القرى المجاورة ، وأخذت أنهار الخير تنصب في البيت البائس الفقير حتى عمرته ، وحتى بدلت أتراحه ، وما راع الناس إلا هذه المهارة التي جددت شباب المنزل وكسته بالملاط ودهنت بابه وشبابيكه فأصبح (فيللا الشيخ محمد ! !) ، كما كان الخبثاء من أهل المدينة يسمونه ! !

تُرى ! ماذا كان يختبئ في أعماق وداد من الأماني والآمال ! ! إن الله قد وهبها مسحة من الجمال الساحر الغامض تكفى لأن تكون رأس مال امرأة تريد أن تلعب دورها في الحياة بمهارة ... فما بالها إذا كان الله العلي قد زودها بهذا الصوت الساحر الذي أخذ يلعب بألباب الجماهير ويخلب أفئدتهم ، والذي لا تنقصه إلا صنعة قليلة وإلا عود مُرن ، أو وتر مرنان لينطلق مدوياً بين أصوات الفنانين !

وبعد ، فلقد ضاقت البلدة الصغيرة بعبقرية الفتاة ، وأخذ الطائر المختبئ في صدرها يهفو إلى جنات أخرى ... إنها تسمع إلى راديو المقهى البلدي القريب من منزلها فتعجب كيف اشتهرت هذه الأصوات المنكرة وكيف تُدوّى في آفاق العالم على حساب شهرة أصحابها ، في حين تثوى هي في هذه البلدة الصغيرة المجهولة كيوسف المحبوس وهو النبي الوفي الأمين ! !

ولكن أين تذهب وداد وفي عنقها هذه العائلة المقدسة ؟ ! إن القاهرة قريبة حقاً ، لكن كيف السبيل إليها ، وبينها وبين مدينة الملك هذا الملاك الحارس الذي هو أمها ؟ ! ثم ماذا تصنع في القاهرة الفاروقية التي لا تعرف فيها أحداً ؟

ولكن لماذا لا تجازف ؟ هل كانت تعرف أنها ستبرع تلك البراعة في ترتيل القرآن وإحياء الموالد ؟ إن كل مشروع مفتقر قبل كل شيء إلى المفاجأة ، وكم أمل طويل عريض قضى عليه التردد ، ولو سنده قليل من الإقدام لطار بصاحبه بجناحي نسر في سموات المجد والشهرة...

— سأسافر غداً يا أماه إلى القاهرة ؟

— القاهرة !

— أجل ... القاهرة العظيمة

— ما هذه المفاجأة يا ابنتي ؟

— لا مفاجأة ، ولا شيء ... لقد عزمت أن أجرب حظي هناك !

— يا ابنتى لقد كبرت ، فكيف أطمئن عليك فى بلاد الغربة ؟!

— القاهرة بلاد عربية !

— ألست ستكونين بعيدة عنى ؟

— ولماذا أكون بعيدة ؟

— لا أفهم !

— ستلحقون بى بعد قليل

— كلنا !

— كلكم

— وماذا تصنعين هناك وليس فى القاهرة أحد يعرفك !

— سيعرفنى الكثيرون بعد قليل .

— وكيف تعرفين هذا !

— هاتف يا أماه ! هاتف جميل ما يزال يدعونى ويوسوس بالأمانى البراقة فى صدرى . لابد أن أتبعه لا بد أن أتبعه !

— ألا تسمعين نصيحتى يا وداد !

— وبم تنصحين يا أماه ؟

— بألا تغادرى بلدتنا هذه

— ولماذا ؟

— لأنها درت علينا أخلاف الرزق

— وهل لا تدر القاهرة أخلاف الرزق ؟

— إن القاهرة يا ابنتى بلدة عظيمة شاسعة ، وبناء الشهرة فيها من المعضلات ... وليس أمام فى حياة الإنسان من ترك ما هو فيه مما عرفه وخبره من وسائل الرزق إلى ما لا يعرفه من وسائله ، خصوصاً فى بلد مثل القاهرة . وقد كنا فى حال من الضيق قبل أن يفتح الله عليك ، فبدل الله ضيقنا سعة وشقاءنا نعيما ودعة ، فإذا سمعت نصيحتى فامكثى هنا والبثى فى تلك البلدة فهى الأهل والوطن والحيا والممات ...

— ولماذا لا أجرب يا أماه ؟ إن لدينا من النقود ما لا نخشى معه مغبة التجربة !

— هذا كلام جميل ... لكن ...

— لكن ماذا ؟

— لكنى أخشى عليك من القاهرة يا وداد !

— ولماذا تخشين على منها يا أماه ؟

— إنها فتنة يا ابنتى ... وصنعتك أقرب ألوان الصنعة إلى فتنة القاهرة وضلالاتها ، فإذا كان الهاتف الذى يدعوك ويجذبك إلى القاهرة قوياً مغرياً ؛ فإن هاتفاً أقوى منه قد قذف فى قلبى الرعب من مشروعك هذا !

— ليس هاتفاً هو الذى قذف فى قلبك الرعب من أجلى !

— إذاً ماذا عساه أن يكون ؟

— إنه قلب الأم

— ليكن هو الذى تقولين !

— من كان يصدق يا أماه أننى أحفظ هذا الكثير من الكتاب ، ثم أحترف هذه الحرفة التى تريدين أن تربطينى ببلدتنا من أجلها ؟

— لم يكن أحد يصدق ... هذا صحيح !

— فلماذا لا أطلب المزيد من الشهرة والمال ؟

— الشهرة والمال !

— أجل ... الشهرة والمال ... أليس هذان هما أكثر جوانب الحياة بريقاً ؟ أليس كل الناس يطلبون الشهرة والمال ؟ فكرى يا أماه فى حالنا قبل أن يطير ذكرى فى هذه القرى وقبل أن تمتلئ أيدينا بالمال ... هل كان حال يسر ؟ أتذكرين ليلة

أمشير ؟ أما زلت تذكرين أخي طاهراً وهو يلتهم قطع المعجين ؟

— أذكر هذا كله يا وداد ، لكن الشهرة والمال ليسا شيئاً قط ما لم يكن تحتهما دعائم من السعادة !

— وماذا يصنع السعادة كما يصنعها المال ؟

— المال وحده لا يصنع السعادة يا وداد

— هذه أقوال الفلاسفة النظريين يا أماه ، أو هي أقوال المساكين والفقراء ، وهم يقولونها ليسلوا أنفسهم ... إنها علالة يعللون بها أدمغتهم الفارغة .. إن الرجل الذي لا يسنده المال لا يستطيع أن يعرف ما هي السعادة ! يتفلسف الفقراء فيقولون وماذا ينفع المال إذا أصابت الإنسان مصيبة في صحته أو في عرضه أو في ولده ؟ أكأن الفقير بنجوة من أن تصيبه المصيبة في صحته أو في عرضه أو في ولده، وهي إذا أصابته في شيء من هذا كانت مصيبته أفدح من مصيبة ذي المال ، لأن مصيبة الفقير تصادف قلباً مكتظاً ويداً فارغة أما مصيبة الغني فتصادف عكس ذلك . إنها تصادف قلباً فارغاً ويداً مكتظة وشتان بين الحالين ... لا تصدق يا أماه أن للفقير قيمة في عالم الحقيقة ... إن أكثر قيمته ناشئ من عطف الناس المصطنع ... وهم يقولون إن للفقير ملكات قد لا تكون للغني ، ولست أدري لماذا لا يكون للغني أحسن وأكثر من ملكات الفقير ؟ على أنه إذا كان للفقير ملكات فماذا ينميها إلا المال ؟ إن الفقير محتاج لكي ينمي ملكاته إلى ملجأ أو جمعية خيرية أو غني من أهل البر أو حكومة منصفة عادلة كي تأخذ بيده وتمينه بالمال حتى تنضج ملكاته ، فإن لم يجد معينه الذي يسنده بالمال فلا قيمة مطلقاً لملكاته ، لأنها مرعان ما تبلى ويأكلها الصدأ وتنقلب حسناتها إلى سيئات ربما دفعت الدولة أموالاً طائلة لتتقي غوائلها ...

— لقد أسرفت في مدح المال يا وداد

— ولماذا لا أسرف في مدحه وهو عندي كل شيء في هذه الحياة !

— كل شيء !

— أجل ، كل شيء ، لأننا أصبحنا في عصر تبدلت فيه الظروف القديمة ؛ فتحول الناس عن صوفية الفقر إلى صوفية الغنى

— ومع ذلك ، فأنا أخشى عليك من القاهرة ؟

— وماذا تخشين عليّ منها يا أمي ؟ أتخشين أن يجرفني تيارها ؟

— كدت أقول هذا !

— إنه تيار جميل رخي لمن يحسن السباحة فيه

— ومن ذلك الذي يحسن السباحة في تيار القاهرة

— أنا !

— أنت ؟

— ولم لا ؟

— لأن التماسيح تسبح فيه بكثرة ، وهي كما تعلمين تسبح أحسن منك !

— اطمئني ... فسأحمل بندقية صيدي دائماً

* * *

لم تستطع الأم الرءوم أن تثني عزيمة ابنتها عن السفر إلى القاهرة ... لأن إرادة وداد كانت إرادة فولاذية لا تلين ، وفي الحق ، لقد كانت وداد تسمع هاتفاً قوياً يناجيها ويلون لها الأماني ويمزج لها الأحلام، ويتبدى بها جالسة على عرش عظيم ممرد من

المجد والشهرة إذا هي ذهبت إلى القاهرة ، وقد استجابت الندائه ؛ فذهبت إلى المحطة بعد أن ودعت العائلة المقدسة ، وركبت القطار للمرة الأولى في حياتها والتقيها الشيخ سيد احمد تحياها وحييته ، وجلسا على مقعد واحد من مقاعد الدرجة الثالثة :

— إلى أين إن شاء الله يا ست الشيخة !

— ست الشيخة ؟

— يا ست وداد !

— هذا أفضل !

— ولمَ ؟

— أنا ذاهبة إلى القاهرة ، فكيف أكون الست الشيخة ؟

— زيارة لأهل البيت أم ماذا ؟

— سأزور أهل البيت إن شاء الله ، ولكن ليس لهذا اعتزمت السفر إلى مصر !

— لعله خير إن شاء الله !

— خير ... خير عظيم إن شاء الله

ثم أخذ الشيخ يداعب ويمزح ، وذكر الفتاة بفجر أمشير ، فقالت له :

— وبمناسبة فجر أمشير يا شيخ سيد ، هل أعجبك صوتي يومها ؟!

— أعجبني صوتك ؟ الله أكبر ؟

— لم أفهم !

— ما هذا السؤال يا ست وداد ! لقد سحرني صوتك وهو ما زال يرن في أذني إلى اليوم !

— وهل سمعتني بعد ذلك ؟

— سمعتك كثيراً !

— وما رأيك في صوتي بصفتك من موازين الفن في بلدنا ؟

— رأيي !

— أجل ... أنا أسألك عن رأيك الحق ، ودع عنك محاولة إرضائي

— رأيي أنك لم تخلقي لبلدتنا الصغيرة ياست وداد !

— ولأي البلدان خلقت إذن ؟

— أقول لك الحق !

— هذا هو ما أطلبه منك

— لقد خلقت للدنيا بأسرها يا وداد ، واعذريني إذا خاطبتك هكذا

— أنت تبالغ ياشيخ احمد ... يا شيخ سيد ... لا تؤاخذني فقد ربكتني

— والله إنك مخطئة في البقاء هناك ! طيري يا شيخة ! طيري إلى القاهرة فهي مهد الفن ، وهي وحدها التي تتسع لك

— وماذا أصنع هناك وأنا لا أعرف فيها إلا قليلين من أقاربي !

— ماذا تصنعين ! أتركي لي هذا الأمر أدبره وأنا أضرب بك كل فناني مصر والشرق !

— يا رجل ...

— أقسم لك يا وداد لو سلمتني زمامك لغدوت ملكة الغناء في مصر ؟

— ملكة الغناء !

— أي نعم ، ملكة الغناء ... إني أرى ألا تقصري حياتك الفنية على ترتيل القرآن وإحياء الموالد ... إن صوتك الطاهر الرنان هو أليق الأصوات للغناء ، فلودرست الألحان وشدوت شيئاً من الموسيقى لغدوت ملكة الغناء كما قلت لك !

— كلامك جميل ولكنه لن يخدعني

— ليس إلى خديعتك أردت يا وداد ... أني أقول لك الحق !

— وكيف لى أن أتعلم الألحان والموسيقى ؟

— هذا من أيسر الأشياء عليك إذا رضيت أن تأخذى برأيى !

— إذن ماذا نصنع !

— صديقى الشيخ زكريا !

— الشيخ زكريا ؟

— أجل ... إنه يعلمك الألحان والعود فى ثلاثة أشهر

— ثلاثة أشهر فقط !

— بل فى أقل من ثلاثة أشهر يا وداد !

— هذه مبالغة لا شك

— ليست مبالغة ، لأنك فنانة بطبعك ، والطبع كالأرض الخصبة التى لا ينقصها إلا البذر لتعطى أكلها

— إذن ...

— اتفقنا ...

— اتفقنا يا شيخ سيد !

— وعلى ذلك نقصد من محطة مصر إلى منزل الشيخ زكريا مباشرة !

* * *

المال ! !

هذه هى الأنشودة الهائلة التى كانت تملأ خيال الفتاة الفنانة وداد ! المال هو كل شىء فى هذه الحياة، إنه محور السعادة فى نظرها ... والسعادة فى نظرها هى القصور والبساتين والسفر وتملق الفقراء للأغنياء، وشعور القدرة على قضاء الحاجيات ، والتحكم فى مقادير الخلق ... المال هو كل شىء فى حياة الأفراد كما هو كل شىء فى حياة الدول . . . أما الفلسفون الذين يذمون المال ويشتمونه ، ويفضلون عليه راحة البال والصحة والحياة الهادئة فى كسر بيت حقير ، فهؤلاء فى رأيها معذورون لأنهم لا يملكون أن يقولوا إلا هذا . وهم يقولونه وهم يعرفون أنهم يغالطون أنفسهم ويغالطون المنطق ، لأن الصحة فى الغالب لا تتوفر إلا للغنى ، وراحة البال كذلك هى من نصيب الغنى قبل أن تكون من نصيب الفقير والحياة الهادئة إن كان فى هدوء الحياة شىء من الفضل ، هى أقرب متناولاً للغنى منها إلى الفقير ، لأن الفقير يخشى الجوع دائماً وهو من خشية الجوع ينسى كثيراً من فضائل الإنسانية العالية ، فهو دائماً يتملق من هو أعلى منه ، وهو دائماً ذليل يغضى على الهوان ، ثم هو مع ذلك شديد الحقد شديد الحسد ، ثم هو منبع دائم للجرائم . فإذا عف عن الجريمة فإنه قلما يعف عن الحقد وحسد الأغنياء ؛ والدولة التى يشتد الفقر بين أفرادها هى أشد الدول انحطاطاً وأكثرها عكوفاً على الموبقات ؛ والدولة التى لا تعالج فقراءها بإصلاح أحوالهم المعاشية وفتح أبواب الرزق لهم ، لن تستفيد كثيراً بالمستشفيات والملاجئ والسجون التى لا تبنيها إلا للفقراء، ومثل هذه الدولة ممرضة دائماً للحسد الأكبر، والحسد الأكبر هو البلشفية ، لأن البلشفية هى ثمرة حسد الفقراء للأغنياء ، ثم هى ثمرة غريزة حب التملك ، لأنه ليس صحيحاً أن البلشفية تأبى التملك ، فقد أراد معتنقوها بادى الرأى حرمان الأغنياء من أملاكهم ليملكوها هم باسم الدولة ، والملكية هنا وإن لم تعن حق التصرف فإنها تعنى فائدتها الكبرى وهى الانتفاع

استطاعت وداد هذه الفتاة الفتية المحدودة الثقافة ، التى ازدهرت عبقريتها أول ما ازدهرت

بين القبور وثرى الموتى ، وفى بيت والدها الفقير البائس المعوز المغفور له الشيخ محمد ، استطاعت أن تفكر كل هذه الأفكار ، لأنها أفكار خفيفة سطحية تدور بخلد كثير من الناس فيما يتعلق بدولة المال ، لكنها امتازت عن هؤلاء الناس بإقدامها وحسن استغلالها لما زودها به الله من جمال قليل لكنه غامض ، وهنا مقدار وتلك الجمال إذا أجيد استخدامه ، ثم هذه الحنجرة الغالية التى اكتشفتها وداد فى جرأستير ، وعرف قيمتها الشيخ سيد أحمد فاقترح تقويمها بالألحان والموسيقى لتكون صاحبتها ملكة الغناء فى مصر .

وقد صدق الشيخ سيد أحمد ، فقد مضت ثلاثة أشهر تقفت فيها الفتاة عقد الموسيقى العملية ، واستطاعت أن تلعب على العود فتأتى بنغم كان له الفضل الأكبر فى تقويم صوتها ، لأنه كان كالماء والسماد صادفا أرضاً صالحة فأنبتت من كل زوج بهيج

وقد أعجب الشيخ زكريا بوداد ، وراعه منها حسن استعدادها وتوفرها على دروسه ، وكان يربكه منها جمالها الغامض ، واستطاع أن يقاوم مغناطيس الحب فى فؤاده شهرين متتابعين طويلين ، وفى الشهر الثالث صرعه التيار العنيف فباح بحبه ، ولكن ليس بلسانه بل بدموعه ، ولم تسأله وداد لماذا يبكى ، فقد كانت أذكى من تلك النزلة لكنها داعبته بكلمات ظريفة تسى بها تباريحه ، ثم ظلت تحاصر هواه وتعبث به حتى برعت فى الألحان وألمت بدروس العود ...

وحينئذ ... أخذت تقف منه موقف الفتاة التى لم يتفتح قلبها للحب بعد ، لأنه قلب يشغله أمل أوسع من الحب دولة وأقوى منه سلطاناً ، ذلك هو أمل المال .. المال قبل الحب ، لأن المال صحة وقوة والحب مرض وضعف ، ثم إن أمها لم تخش عليها من القاهرة إلا الفتنة ، وما هو من باب الفتنة من حب وغرام وضلالة أخرى

وكأنها عاهدت نفسها قبل أن تركب القطار إلى القاهرة إلا أن تحقق رجاء أمها فلا تنهزم أمام أبالسة العاصمة ، وشياطين الضلالات فيها ، فكانت دائماً تذكر ما حذرتها أمها منه ، فلم تكن تأبه كثيراً لنظرات العشاق الطائرة ، ولا لكلماتهم المصنوعة ، ولا لإشاراتهم الفاسقة التى لا يريدون بها غير وجه الشيطان ، وغير إشباع اللبانات والشهوات .

برعت وداد فى الغناء الفنى براعة هائلة ، واستطاعت أن تبتكر ألواناً جديدة من الغناء التمثيلى ثارت بها على عرف التخت الشرقى الجامد ، ولم تبال أن تمزج بين الغناء وبين الرقص التوقيعى ، ولم تزل بأختها سيدة تطن فى أذنيها بالأمانى الجميلة والآمال المعسولة حتى حببت إليها الحياة الفنية ، وجعلت نفسها ترفق فى أجواء المسارح والسينمات ، وكان أكثر همها أن تشاركها أختها فى عملها ، فقد أوتيت سيدة من الجمال نصيباً لم يتوفر لوداد ، وجمال ربات الفن هو نصف رأس مالهن ... فإذا اقتسمتا العمل فستكون وداد للغناء وستكون سيدة للرقص ، وجسم سيدة كفيل باجتذاب الجماهير ، لأنه جسم مرمرى سليم له بشرة وردية يترقرق فيها عطر ليست فيه رائحة ، ولكن فيه مغناطيس يكسبه زغب العذرية سحراً وقوة

ولكن الرقص مازال معدوداً فى مصر خلاعة إن لم يكن فجوراً ، والناس — أو أكثر الناس — لا يعرفونه فناً من أرفع الفنون التى لا تقل قيمة عن الشعر أو الرسم أو التصوير أو الموسيقى ، بل

يعدونه من تجارة تكسب المال بالأجسام، فهو عندهم باب الزنا . ولذلك فهم يعدون كل راقصة فاجرة تتجر بجسمها أمام الناس وتوزع محاسنها بالقروش على أبصارهم يأكلونها ساعة أو ساعتين ثم ينصرفون وقد تأججت شهواتهم بين أضالعهم ، وفى خلدهم صورة الراقصة المسكينة ما تزال تميس وتدل وتتأود وتنثنى ...

هكذا ينظر الناس فى مصر إلى الرقص والراقصات، وقل منهم من ينظر إليه نظرة أرفع من هذه النظرة وأسمى ، ولذلك فقد وقعت وداد أمام مشكلة هائلة وهى تحاور أختها كى تقنعها باحتراف الرقص، وكانت وداد قد تلقت دروساً فى الرقص التوقيعى على يدى فنان عظيم ، فلم يسعها يوماً إلا أن تدبر حيلة لتحارب فى نفس أختها النفور من تلك الحرفة الجميلة ، فدبرت حفلة مجانية فى صالة من أكبر صالات القاهرة ؛ ثم دعت إليها طائفة كبيرة من علية المصريين الذين سعدوا بغنائها وعرفوا ما فيه من أسرار القوة والنبوغ ، فلبوا الدعوة جميعاً ، ولما حان موعد الغناء تجردت وداد من ثيابها العادية ثم أضفت عليها ثياب الرقص للمنظر الأول الذى أطلقت عليه اسم « أمل فتاة ! » . وكانت صور المنظر قد نقشت على ستائر المسرح بأيدى كبار الفنانين المصريين الذين أوتوا فى هذا السبيل نصيباً عظيماً من العبقرية وسلامة الذوق فى أداء المعنى وإضفاء الروح الشعرى على المنظر المطلوب ... وبرزت وداد بعد إطفاء الأنوار وأخذت فى الغناء وتوزيع الرقص فى غمر جميل من الأشعة ذات الألوان المختلفة ... لله ما كان أجملها وما كان أروع تثنيها وهى تتأود فى فيض أشعة البرتقال ! لقد كان الناس معذورين فى هذه النوبة الجنونية

التى أعقبت الانتهاء من عرض المنظر الأول ، والتى أطلقوا فيهـا أكفهم وحناجرهم تصفق وتدوى بالتحية والإعجاب ، وكانت باقات الورد والرياحين تنتثر فوق المسرح تحت قدمى وداد ، ووداد تبتسم ابتسامة رقيقة محتشمة ، وتنظر نظرة واجفة نحو أختها سيدة لتنظر ماذا تم من أثر هـذا المرض فى نفسها

وانتهت الحفلة ، ونالت تسميها اللانهائى من النجاح ، وفى اليوم الثانى ، بدأت طائفة من أكرم الهدايا تصل إلى وداد من شخصيات مصرية كريمة لا يمكن أن يكون تقديرها لما رأت من رقص وسمعت من غناء تقديراً شائناً إبليسياً كما تعود الآخرون أن يفعلوا ! وقد انتقت وداد من الهدايا حلياً غالية وضمتها بيدها على جيد سيدة وفى رأسها وإصبعها ...

— أرأيت يا سيدة !

— ... ؟ ...

— هل أصابنى سوء مما فعلت يا أختاه ؟

— أنت جريئة ... جريئة جداً يا وداد !

— ولم لا تكونين جريئة أنت أيضاً يا أختى ! !

— أتمنى أن أكون كذلك ... ولـكنى لا أستطيع الآن !

— بل تستطيعين ... فقط ...

— فقط ماذا ؟

— تتعلمين

— وماذا أتعلم

— تتعلمين ما تعلمت ... الأستاذ صادق فنان متقدم فى السن ، حميد الخصال موفور الأدب طيب السيرة ، وهو الذى تولى تلقينى هـذه الدروس فى الرقص ، وهو الذى سيتولى تلقينك أيضاً !

— رأي يا وداد ! آه لو رأيتك الليلة الماضية ! !

— أمي ! وما دخل أمنا إلا في المحافظة علينا من أن نزل ! !

— هي تعتقد أننا في حياتنا هذه أدنى إلى الخطيئة

— لتعتقد ما تشاء ، أما نحن فنسأل الله أن يقينا مصارع الزلل

— وكيف نسأل الله أن يقينا مصارع الزلل ونحن نلقي بأنفسنا مكتوفين في اليم ؟ !

— هذا وهم كاذب ... إنك يا أختاه ستقومين بأداء أدوار من الرقص التوقيعي التمثيلي إما بمفردك وإما معي ، ولن يشترك معنا أحد ... إن آمالي الواسعة في عالم الفن مفتقرة إلى جسمك الخصب أشد الافتقار ... إن جسمك المشوق المثلي لم يخلق لشهوات الأزواج فقط يا سيدة ! إنه خلق للكفاح في دنيا الفنون ، وثقي أن الله سيحفظنا من شياطين الإنس ما دمنا لا نقع في حبائلهم ولا نتغمس في خبائثهم ... فهلمي ... أعينيني يا سيدة ... يجب أن نعيش سعداء وأن ننهض بتربية أختنا الصغير ، ونضمن لأمنا آخرة سعيدة هانئة. أما نحن .. أما أنا وأنت ، فسترين كيف يصطرع العشاق تحت أقدامنا فنختار منهم زوجينا ، فإذا ولى الشباب ، ولم يعد لنا رونقه الذي هو أول ضرورات الفن ، اعتزلنا الرقص والغناء ، وأقمنا في قصرينا المنيفين إن شاء الله ، تكلأ ما عينه ، ويسندنا ما ادخرناه لهذا الغد المحتوم

* * *

آه لو كان للرجال مثل إرادة وداد !

لقد تألق نجمها في عالم الغناء كما تألق نجم أختها في عالم الرقص ... وقد جن الأستاذ صادق بسيدة كما جن الأستاذ زكريا بوداد ... لكن الأختين الزمتا الحفاظ أعواماً ثلاثة استطاعتا خلالها اقتناء المال الكثير والثروة المديدة ، واستطاعتا أن يكون لهما مسرح خاص أصبح قبلة رواد محبي الفن الخالص المجرد الذي لا يستعين في استغواء الشباب بالأرداف والأفخاذ والنجوى المخنثة والخلوة التي يطير فيها الميراث وتتبدد الثروات ... وكان لزكريا برغم صدود وداد منزلة الملحن الأول في المسرح كما كان لصادق برغم صدود سيدة منزلة مخرج أدوار الرقص ... وقد طال حب البطلين للبطلتين ، لكن الفتاتين لم تفتحا قلبيهما لأحد ... لقد أصبح جمع المال وتنمية الثروة طبيعة لهما ... فهما لا تعرفان حباً كحب الذهب ولا غراماً كغرامهما بالأسهم والسندات والدور والقصور والمزارع والضياع ... لقد أصبح لهما من ذلك الشيء الكثير ... لكنهما مع ذلك صانتا عفافهما ، ولم تجمعا مما جمعتاه مليماً واحداً حراماً ، ولو قد التفتتا إلى جمع المال من طريق حرام لاجتمع لهما هرم كهرم خوفو من الذهب . . لقد كان غناء وداد دروساً في الوطنية وأغاريد في الحب والجمال وحفز الهمم إلى المعالي ، وكان غناؤها يمتزج برقص سيدة فتكون حولهما جنة كلها إعجاز وكلها حور ومياه دافقة وزهر وشجر وطير وثمر يانع جناه دان ودوح غصونها حوانٍ ... لقد كان فنهما شيئاً جديداً في الفن المصري ... لأول مرة شهد الجمهور المصري رقصاً لا يثير شهوة ولا يتملق الغريزة الجنسية ، وإن يكن جسم سيدة جسماً يانعاً يافعاً فيناناً وإن يكن لهذا الجسم اليانع اليافع الفينان ندبان يقلقلان الفؤاد الخلي ، وساقان ناعمتان مستويتان ، وخصر لطيف نحيل وذراعان لدنتان ، تنتهيان بأصابع عاجية تكاد تنعقد من لين وطراوة . . أما وجهها فهو دولة كاملة من المباهج والمفاتن ، وحسب الفم تلك الابتسامة الغريرة البريئة التي لم تعرف الختل ، وحسب العينين

تلك النظرات الهادئة التي لم تتلفها الصنعة ، وحسب الجبين تلك الأشراقة التي تملأ القلوب نوراً ووضاءة، أما شعرها فقد كان فاحماً ساجياً ينسدل على الكتفين، ثم تطير خصلة منه غير مصفوفة على الجيد ، في حين تنتثر أخرى في الهواء ، حسب ما يتفق للثنى في الرقص وكانت سيدة مع كل هذه المفاتن لا تثير الحيوان في أصلاب النظارة ، بل كانت تبتث في أفئدتهم روعة الفن ونعمة التلذذ به ممتزجاً بسحر التصوير وجمال توزيع الضوء ... ثم ... سمو الغناء الجميل الذي كانت وداد تبعثه مع النسيم من فوق القمم ومن صميم الوديان أو من بين السحب !

وتبسم الحفل الوافر للفتاتين

لكن زكريا لم يعد يطيق صبراً على حاله المبرحة من هيامه بوداد ؟ ولا الأستاذ صادق يطيق التجلد على هوى سيدة

— لست أدري يا صديق زكريا لماذا أرسلك القضاء إليّ بهذه الفتاة ! لقد أورثني حبها السقام ، وصرت من غرامي بها في جحيم وفي نعيم ، وأخشى أن يحرق جحيمي جنتي !

— أسكت يا صادق ! أسكت يا عزيزي ! والله إن قسمة حبنا لتثير الشجون ... إن كنت أنت في جحيم وفي جنة ، فأنا في علة دائمة لا أحسبها تنتهي إلا بمنيتي ... عجباً لهذه الفتاة عجباً ! إنها لغز إنها سر غامض .. أتصدق أنني لم أستطع إلى اليوم أن أنتزع منها تصريحاً أو تلميحاً بأنها تميل إليّ ولو بعض الميل ، ولو كصديق ، ولو كرجل لفنها ألحانها جميعاً وعلمها أسرار الموسيقى ! أنا ! ؟ لشد ما يحزنني أنها هزمتني ! أنا الذي لا أعلمها إلا أحاديث الحب وكلمات الغزل وآهات الغرام ! أعلمها كل ذلك وأعجز عن ابتعاث شيء ولو تافها من الحب في قلبها!

— ألا أقول لك يا زكريا ؟

— تقول لي ماذا ؟

— لقد صرنا هرمين يا صديقي ، والبنتان في شبابهما الريان ، ثم لا تنس أنهما أصبحتا من الغنى بمكان يبعدهما عنا كثيراً ... إنهما تطمحان إلى من هم أكفأ منا وأعلى مقاماً ...

— ماذا تقول يا زكريا !

— أقول الحق يا صديقي ... والرأي أن نظل عالقين في ظلهما نسمد ونشقى في وقت معاً ...

وأطرق صادق رأسه ، ثم نظر إلى زكريا وفي عينه عبرة مترقرقة توشك أن تنهمر ، ولم ينبس بكلمة

ثم نهضا ليذهبا إلى منزل وداد ... أو قيلا وداد بمصر الجديدة ، فقد كانا على موعد معها لشأن من شئون العمل

* * *

— أهكذا يكون جزائي يا آنسة وداد !

— أي جزاء يا رجل ؟ إن كنت في حاجة إلى نقود فأنا أعطيك ما تريد !

— نقود ؟ أبالست في حاجة إلى نقودك يا آنسة !

— إذن ماذا تريد ؟

— ألا تعرفين ؟

— ومن يدريني ؟

— إذن أريد قلبك .. أو أريد قلبي يا عزيزتي !

— لغة لا أفهمها ... اسمع يا شيخ سيد أحمد ، لا تظن أنك تكلم مطربة ممن تعرفهن في عرض الطريق

— طبعاً ... أنا أكلم الآنسة الفنانة الكبيرة وداد بنت الشيخ محمد الفقي الله يرحمه !

— رحمه الله رحمة واسعة ، وهل في ذلك ما ينقص قدري !

— ومن قال إن ذلك ينقص قدرك !

— اسمع يا شيخ سيد ! كم سنة عمرك ؟

— خمس وأربعون

— وكم سنة عمري ؟ !

— خمس وعشرين !

— كذاب !

— بل أكثر من خمس وعشرين !

وكانت أمها حاضرة هذا اللقاء ، وكانت أمها تود من قلبها أن تزوجه ابنتها وداداً ، لأن الرجل ليس طاعناً في السن كما تحسب الفتاة ، ثم هو في سعة من العيش ، ولم يكن أحد يظن أن مثل الشيخ سيد يرضى أن يتزوج بنت الشيخ محمد الفقي ، فلما جاءت مسئلة السن تدخلت وادعت أن وداداً لا تزيد عن عشرين أو إحدى وعشرين ، ثم قالت : إن شهادة ميلادها موجودة وكذلك شهادة ميلاد سيدة ، ومع أن الموقف لم يكن موقف هزل ، فقد تضاحكت وداد فجأة ؛ ثم بالغت في الضحك حتى استلقت على كرسي الذراع القريب ، وهي ما تكاد تملك نفسها من شدة الضحك

— ماذا أضحكك يا وداد ؟

— لا شيء يا أمي ...

— لا يمكن ... لا بد أن أعرف !

— لقد ذكرت شيئاً ...

— وماذا ذكرت ؟

— شيئاً قديماً ... قديماً جداً !

— تكلمي يا وداد

— أمتأكدة أنت أن شهادتي ميلادي وميلاد سيدة عندنا ؟

— طبعاً ... ! إني محتفظة بهما

— إذن قومي فهاتيهما

— ولماذا ؟ هل أنا كذابة !

— أستغفر الله أن تكوني يا أمي ... ولكن لأراها وليقتنع الشيخ سيد

وكان خالد أفندي عبدالنبي قد أقدم مع الشيخ ليخطب سيدة فتنحنح ثم قال إنه لا يظن أن الآنسة وداد تزيد عن ثماني عشرة سنة ، وكان تملقاً ثقيلاً ما كان أغناه عنه ... وذهبت الأم ثم عادت بورقتين دفعتهما إلى وداد التي أغرقت في الضحك إغراقاً شديداً ، لأن الورقتين كانتا ورقتي عقد إيجار ... ثم ذكرت وداد ليلة أمشير التي لا تنسى ، وأمها جاءت لأمها بورقتي الميلاد لتستعين بهما في إشعال النار ... فكانت تسلية ظريفة أضحكت الجميع ...

ولما هدأت العاصفة قال خالد :

— وأنا يا ست سيدة !

— وأنت ماذا يا سيد خالد ؟

— إنه ليسعدني أن تقبليني زوجاً

— أنا ؟

— طبعاً أنت ؟

— أنا لا شأن لي في هذه الأمور يا عزيزي

— ولمن الشأن إذن ؟

— سل وداد !

— أسأل وداد وأمك حاضرة !

— أمي لا تجيد هذه الأمور كثيراً !

وهنا ثارت الأم وزجرت ابنتها فقالت وداد :

— تريد أن تقول إني وإياها شريكتان في عمل لا نستطيع أن نتركه ، وعملي وعملها لا يسمحان بالزواج يا أماه ، وإذا كان لا بد من زواج ...

وهنا دخل الأستاذان زكريا وصادق فجأة فقالا :

— قبلنا ... أليس كذلك يا آنسة وداد ؟

ثم قال زكريا :

— ألسنا أحق من هذين ؟

وقال صادق :

— ألسنا أحق يا آنسة سيدة

فقالت وداد :

— إذن كنتما مختبئين ؟ وسمعتما كل شيء !

فقال زكريا :

— أي والله !

فقالت وداد :

— إذن فابشرا

فقال زكريا :

— بشرك الله بكل خير يا ... يا حبيبتي !

— إذن فابشرا أننا لن نتزوج أبداً يا أستاذ زكريا

وهنا وجم الجميع ، ونهض الشيخ سيد احمد فجأة فقال :

— ومن يرضى أن يتزوج مطربة ؟

وقال خالد :

— ومن يرضى أن يتزوج راقصة ؟

ثم انطلقا غير مأسوف عليهما

قالت وداد :

— أسمعت يا زكريا ؟ أعرفت لماذا نرفض أن نتزوج ؟ أليست حياة الفن شقاء فى مصر ؟! وأنت يا سيدة ! هل عرفت أن المال لأمثالنا هو كل شيء ؟!

درينى خشبة

سيدى
لا تخشى على مجوهراتك

سيدى
لا تخشى على مستنداتك

اودعوها

خزائن بنك مصر الحديدية

فهى فى الحفظ والأمان

بنك مصر يؤجر لكم خزائنه الحديدية القوية ويرعاها بعين ساهرة